الصفات السمعية التى يجب الاعتقاد بها

ما قدّمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هى ما أرشد إليه البرهان ، وجاءت الشريعة الإسلامية وما تقدَّمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة إليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل إذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لا يهتدى إليه النظر وحده ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعاً لما قرره الشرع وتصديقاً لما أخبر به .

فمن تلك الصفات صفة الكلام ، فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لابد أن يكون شأناً من شئونه قديماً بقدمه[1] .

---

(١) كان قد حذف من الطبعات التى تلت الطبعة الأولى صفحة فى مسألة الخلاف فى خلق القرآن ، وقد رأينا خدمة للعلم ومحافظة على أصل الرسالة التى طبعت فى عهد مؤلفها من أن يعتورها نقص – أن نأتى هنا بهذه الصفحة حتى تكون الرسالة كاملة

الصفحة الناقصة من الكتاب

« أما الكلام المسموع نفسه المعبر عن ذلك الوصف القديم »
« فلا خلاف فى حدوثه ولا فى أنه خلق من خلقه ، وخصص »
« بالإسناد إليه لاختياره له سبحانه فى الدّلالة على ما أراد »
« إبلاغه لخلقه ، ولأنه صادر عن محض قدرته ظاهراً »
« وباطناً ، بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه »
« سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره ، والقول »
« بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم »
« بنسبة التغير والتبدّل إليه ، فإن الآيات التى يقرؤها القارئ »
« تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت » .

« والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضلّ اعتقاداً من »
« كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة إلى مخالفتهـا »
« وليس فى القول بأن الله أوجد القرآن بدون دخل لكسب »
« بشر فى وجوده ما يمس شرف نسبته ، بل ذلك غاية ما دعا »
« الدين إلى اعتقاده ، فهو السنة وهو ما كان عليه النبىّ »
« وأصحابه ، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة » .

« أما ما نقل إلينا من ذلك الخلاف الذى فرّق الأمة »
« وأحـدث فيها الأحداث ، خصوصاً فى أوائل القرن الثالث »

« من الهجرة ، وإباء بعض الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق »
« فقد كان منشؤه مجرّد التحرّج والمبالغة فى التأدب من »
« بعضهم ، وإلا فيجلّ مقام مثل الإمام ابن حنبل عن أن »
« يعتقد أن القرآن المقروء قديم ، وهو يتلوه كل ليلة »
« بلسانه ويكيفه بصوته »[1] .

---

(١) هذه هى الصفحة التى حذفت من الطبعة الأولى ، وخرجت سائر الطبعات بعدها بدونها .

ويراجع ما قاله الأستاذ الإمام فى موضوع كلام الله بالصفحات ١٨٤ – ١٩٠ من حاشيته على العقائد العضدية ففيه البيان المحكم فى هذا الأمر ، ونقفى هنا على كلام الأستاذ الإمام بجواب للبخارى صاحب الكتاب المشهور فى الحديث ، فقد سئل عندما قدم نيسابور سنة ٢٥٠ م عن (اللفظ بالقرآن) فقال : « أفعالنا مخلوقة ، وألفاظنا من أفعالنا » .

وقال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه :

« لم يزل الله عز وجل ربنا ، والعلم ذاته ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، والبصر ذاته ولا مبصر ، والقدرة ذاته ولا مقدور .

فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم ، والسمع على المسموع ، والبصر على المبصر ، والقدرة على المقدور .

ولما سئل : فلم يزل متكلماً ؟ قال :

« إن الكلام صفة محدثة ليست بأزلية ، كان الله عز وجل ولا متكلم . ص ٢٩٠ ج ١ من تفسير البيان للإمام الخوئى .

وقال الإمام الغزالى فى كتابه (مشكاة الأنوار) وهو يتكلم عن الصورة التى أعطاها الله لآدم ، جامعة لجميع أصناف ما فى العالم ما نصه : إنها مكتوبة بخط الله الذى ليس برقم حروف ، إذ تنزه خطه عن أن يكون رقماً وحروفاً ، كما تنزه كلامه عن أن يكون صوتاً وحرفاً ، وقلمه عن أن يكون خشباً وقصباً ، ويده عن أن تكون لحماً وعظماً » ص ٧١ من طبعة وزارة الثقافة .

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر ، وهى ما به تنكشف المبصرات ، وصفة السمع وهى ما به تنكشف المسموعات فهو السميع البصير ، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة مما هو معروف لنا * [1] .

كلام فى الصفات إجمالا

أبتدئ الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى حسًّا كان أو وجداناً أو تعقلاً ، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها ، وتحصيل كليات لأنواعها والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها . أما الوصول إلى كنه [2] حقيقة ما ، فمما لا تبلغه قوته لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما تركبت منه ، وذلك ينتهى إلى البسيط الصرف وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة ، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه

---

* ولا باصرة .

(١) وكذلك علمه ليس بآلة الدماغ ، ولا بوجدان القلب .

(٢) كنه الشىء جوهره وحقيقته وغايته ، ومعرفة الكنه هى معرفة الإحاطة التى ليس وراءها غاية . والاكتناه معرفة الكنه كاكتناه الماء وهو معرفة عناصره إلخ .

وآثـــاره . خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء ، قرّر الناظرون فيه له أحكاماً كثيرة فصلوها فى علم خاص به ، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ، ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه ، وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان وعلى هذا القياس . .

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات ، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله إن كان سليماً إنما هى تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به وإدراك القواعد التى قامت عليها تلك النسب ، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت ، وصرف للقوّة إلى غير ما سبقت إليه .

اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء إليه وهى نفسه : أراد أن يعرف بعض عوارضها ، وهل هى عرض أو جوهر ؟ هل هى قبل الجسم أو بعده ؟ هل هى فيه أو مجردة عنه ؟ كل هذه صفات لم يصل العقل إلى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وإنما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حىّ له شعور وإرادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة ، فهو راجع إلى تلك العوارض التى وصل إليها ببديهته ، أما كنه شيء من ذلك ، بل وكيفية إنصافه ببعض صفاته ، فهو مجهول عنده ، ولا يجد سبيلا للعلم به .

هذا حال العقل الإنسانى مع ما يساويه فى الوجود أو ينحط عنه ، بل كذلك * شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى ؟

* بل وكذلك .

ماذا يكون دهشه * بل انقطاعه إذا وجه نظره إلى مالا يتناهى من الوجود الأزلى الأبدى ؟ .

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ، ويضىء للنفس طريقها إلى معرفة مَن هذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره ، وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام ، وتخالف الأنظار فى الكون إنما هو من تصارع الحق والباطل ، ولابد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الأفكار ، أو صولة القوى منها على الضعيف .

وأما الفكر فى ذات الخالق فهو طلبٌ للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشرى لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركب فى ذاته ، وتطاولٌ إلى ما لا تبلغه القوّة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعى إلى ما لا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدّى إلى الخبط فى الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصره .

لا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى ، يأتى فيها مع صفاتها ، فالنهى واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ، وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ، ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ،

* ماذا يكون اندهاشه .

أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها * .

فالذى يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات ، أزلى أبدى حى عالم مريد قادر متفرّد فى وجوب وجوده ، وفى كمال صفاته ، وفى صنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه ، أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية ، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشؤون التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب ، فمما لا يجوز الخوض فيه إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه ، والاستدلال على شىء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل ، وتغرير بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى — وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضلّ فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع ، فما علينا إلا الوقوف عندما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدّمنا من الخائضين ** .

---

* وأما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيه .

** ممن تقدمنا .

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته كما سبق تقريره ، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته ، فجميع صفات الأفعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم ، مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص[1] فلا يطوفَنَّ بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة ، أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته ، كما هو الشأن فى لوازم الماهيات أو فى اتصاف الواجب بصفاته مثلا — فإن ذلك هو التناقض البديهى الاستحالة كما سبق الإشارة إليه .

بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التى اختبط فيها القوم اختباط أخوة تفرّقت بهم الطرق فى السير إلى مقصد واحد حتى إذا التقوا فى غسق الليل فصاح كل فريق * بالآخر صيحة المستخبر فظن كل أن الآخر عدوّ يريد مقارعته على ما بيده ، فاستحرّ بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى من بقى وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل

---

(١) الإمكان الخاص عبارة عن كون كل من إيجاب ذلك وسلبه غير ضرورى ، أى لا يمتنع فعله عقلا ولا يتحتم .

* ثم التقوا فى غسق الليل صاح كل فريق .

لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا، ولوافتهم الغاية إخواناً بنور الحق مهتدين .

نريد تلك المقالات المضطربة فى أنه يجب على الله رعاية المصلحة فى أفعاله ، وتحقيق وعيده فيمن تعدّى حدوده من عبيده ، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأغراض ، فقد بالغ قوم فى الإيجاب حتى ظنّ الناظر فى مزاعمهم أنهم عدّوه واحداً من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق ، وتأدية ما لزمه من الواجبات تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ، وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قُلَّباً يبرم اليوم ما نقضه بالأمس ، ويفعل غداً ما أخبر بنقيضه اليوم ، أو غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) ، وهو أحكم الحاكمين ، وأصدق القائلين ، جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله .

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة ، وصرّح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله ، والكذب فى أقواله ، ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ ويتمارون فى الأوضاع ، ولا يدرى إلى أىّ غاية يقصدون ؟ فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ولنردّ إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه .

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاماً ، أو يدفع فساداً ، خاصاً كان أو عاماً لو كشف للعقل من أىّ وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثاً ولعباً ، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه إلى أوضاع اللغة وبداهة العقل – لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ، ولا يتمثل عند العقل بمثالها إلا إذا كان ما يتبع العمل مراداً لفاعله بالفعل ،

وإلا لعدّ النائم حكيماً فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقرباً كادت تلسع طفلا * أو دفعت صبيًّا عن حفرة كاد يسقط فيها ، بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة والبداهة تأباه .

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء « أن أفعال العاقل تصان عن العبث » ، ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بـإرادته ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها ، وإن كان هذا فى العاقل الحادث فما ظنك بموجد ** كل عقل ومنتهى الكمال فى العلم والحكم ؟ هذه كلها مسلّمات لا ينازع فيها أحد .

. صنع الله الذى أتقن كل شىء[1] وأحسن خلقه[2] مشحون بضروب الحكم ففيه ما قامت به السموات والأرض ، وما بينهما وحفظ به نظام الكون بأسره ، وما صانه عن الفساد الذى يفضى به إلى العدم ، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته ، خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه .

فهذه الحكم التى نعرّفها الآن بوضع كل شىء فى موضعه ، وإيتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة ، إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل

---

* كاد يلسع طفلا .

** فما ظنك بمصدر كل عقل .

(١) مقتبس من سورة النمل ٢٧ : ٨٨ .

(٢) سورة السجدة ٣٢ : ٧ .

أم لا ، لا يمكـن القول بالثانى وإلا لكان قولا بقصور العلم إن لم تكن معلومة ، أو بالغفلة إن لم تكن مرادة ، وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن إرادته ، فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هى تابعة للفعل ، ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به ، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة ، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة ، إذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعدّ ذلك من الحكمة كما سبق .

فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وإرادته ، وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين ، وهكذا يقال فى وجوب تحقق ما وعد وأوعد به ، فإنه تابع لكمال علمه وإرادته وصدقه ، وهو أصدق القائلين (١) وما جاء فى الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه إلى بقية الآيات وسائر الآثار ، حتى ينطبق الجميع على ما هدت إليه البديهيات السابق إيرادها ، وعلى ما يليق بكمال الله وبالغ حكمته ، وجليل عظمته . والأصل الذى يرجع إليه كل وارد فى هذا الباب قوله تعالى : (٢١ : ١٦ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين [١٧] لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين [١٨] بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) .

---

(١) كتب المصنف فى طرة نسخته هنا ما نصه : ولا يقال إن غاية حكمته الوجـوب عليه ، لأنه هو جاعل الغاية وذو الغاية وكون الغاية غاية . لأنه المبدع الذى لا يتأثر بشيء ولا يحكم عليه أمر ما أراده .

وقوله لاتخذناه من لدنا ، أى لصدر عن ذاتنا المتفرّدة بالكمال المطلق الذى لا يشوبه نقص وهو محال ، وإن فى قوله : (إن كنا فاعلين) نافية وهو نتيجة القياس السابق[1] .

بقى أن الناظرين فى هذه الحقائق ينقسمون إلى قسمين ، فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته ، فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ولا يبالى جوّز الشرع إطلاقها فى جانب الله أم لم يجوّز ، فيسمى الحكمة غاية وغرضاً وعلة غائية ورعاية للمصلحة ، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عناناً يردّه عن إطلاق اسم متى صح عنده معناه ، وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ .

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشئون لإلهٍ عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ، ويجب الاحتياط فى تنزيهه ولو * بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصاً فى جانبه فيتبرأ من تلك الألفاظ مفردها ومركبها ، فإن الوجوب عليه يوهم التكليف والإلزام ، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار ، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر ، وهما من لوازم النقص فى العلم ، والغاية والعلة الغائيّة والغرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل إلى نهايته وفيها ما فى سوابقها ، ولكن الله أكبر ، هل يصح أن تكون سعة المجال ، أو التعفف فى المقال ، سبباً فى التفرقة بين المؤمنين وتماريهم فى الجدال حتى ينتهى بهم التفرّق إلى ما صاروا إليه من سوء الحال ؟

---

(١) القياس هو قوله فى الصفحة الماضية : (فهذه الحكم التى نعرفها الآن .... إلخ) .

* حتى بعفة اللسان .

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدّرها بإرادته ، ثم يصدرها بقدرة مّا فيه ويعدّ إنكار شيء من ذلك مساوياً لإنكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل .

كما يشهد بذلك (١) فى نفسه يشهده أيضاً فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى إلى منجاة فسقط فى مهلكة فيعود باللائمة على نفسه ، إن كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أوّل مرة مرشداً له فى الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى إن كان سبب الإخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه فينبرى لمناضلته ، وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره . أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله ، كأن هب (٢) ريح فأغرق بضاعته أو نزلت * صاعقة فأحرقت ماشيته أو علق أمله بمعين فمات ، أو بذى منصب فعزل ،

---

* أو نزل صاعق فأحرق ماشيته .

(١) الظاهر حذف الباء فإنه من شهود الشيء لا الشهادة كما فى سابق القول ولاحقه

(٢) الريح مؤنثة ـ ذهل المؤلف عن تصحيحه ولم يتركه لأن التأنيث مجازى . .

يتجه من ذلك إلى أن فى الكون قوّة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطاناً لا تصل إليه سلطته ، فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليـــل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يصرّفه على مقتضى علمه وإرادته خشع وخضع وردّ الأمر إليه فيما لقى ، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى ، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكوّن الكائنات أسمى من قوى الممكنات ، يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية ، عقلية كانت أو جسمانية ، قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وقد عرّف القوم شكر الله على نعمه فقالوا : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله .

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف ، ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه وهو عقله الذى شرّفه الله بالخطاب فى أوامرهٖ ونواهيه .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سرّ القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدءوا ، وغاية ما فعلوا أن فرّقوا وشتتوا ، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق ، وهو غرور ظاهر ، ومنهم من قال بالجبر وصرح به ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه ، وهو هدم

للشريعة ، ومحو للتكاليف ، وإبطال لحكم العقل البديهى وهو عماد الإيمان .

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدّى إلى الإشراك بالله وهو الظلم العظيم ، دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراك على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالإشراك اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين ، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه ، كالاستنصار فى الحرب بغير قوّة الجيوش ، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا .

هذا هو الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه وردّ الأمر فيما فوق القدرة البشرية ، والأسباب الكونية ، إلى الله وحده وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية ، الأوّل : أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ، ما هو وسيلة لسعادته ، والثانى : أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات ، وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريده ، وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمدّ العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه .

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه إلى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه ، وتكليفه بأن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده

من الجهد فى تصحيح الفكر وإجادة العمل ، ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك .

وهذا الذى قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم ، وعوّل عليه من متأخرى أهل النظر إمام الحرمين [١] الجوينى رحمه الله وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه .

أكرر القول بأن الإيمان بوحدانية الله لا يقتضى من المكلف إلا اعتقاده أن الله صرّفه فى قواه فهو كاسب لإيمانه ، ولما كلفه الله به من بقية الأعمال ، واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ، ولما وحدها السلطان الأعلى فى إتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة ، مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته .

وأما التطلع إلى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الإيمان كما بينا ، وإنما هو من شَرَه العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار ، ولا أنكر أن قوماً قد وصلوا بقوّة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك إلى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ما هم ، على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء ، وكثر ما ضلّ قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم[٢] .

لو شئت لقرّبت البعيد فقلت إن من بالغ الحكم فى الكون أن

---

(١) إمام الحرمين لقب أبى المعالى عبد الملك بن أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى .

(٢) هم جهلة أدعياء الولاية بالتصوف التقليدى الذين أفسدوا عقائد العامة بالجبر والخرافات .

تتنوّع الأنواع على ما هى عليه فى العيان ، ولا يكون النوع ممتازاً عن غيره حتى تلزمه خواصه ، وكذا الحال فى تميز الأشخاص ، فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هى عليه ، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ، ومن تلك الأنواع الإنسان ، ومن مميزاته – حتى يكون غير سائر الحيوانات – أن يكون مفكراً مختاراً فى عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ، ولو سلب شيء منها لكان إما ملكاً أو حيواناً آخر والفرض أنه الإنسان ، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل ، ثم علم الواجب محيط بما يقع من الإنسان بإرادته وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا وهو خير يثاب عليه ، وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر ، والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار ، فلا شيء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب ، وكون ما فى العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل .

ولنا فى علومنا الكونية أقرب الأمثال شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة ، وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختياره لا بالمنع ولا بالإلزام ، فانكشاف الواقع للعالم لا يصح فى نظر العقل ملزماً ولا مانعاً ، وإنما يريك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ .

ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل أُلِف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية ، لكن يمنعنى عن الإطالة فيه عدم الحاجة إليه فى صحة الإيمان وتقاصر عقول العامة عن

إدراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الإيضاح عنه ، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد ، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقاً لما يعتقدون ، فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته ، وإن أدّى ذلك إلى جحد العقل برمته فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ! فإن صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم « ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله فى خلقه وتحريف لهديه فى شرعه » عرتهم هزة من الجزع ثم عادوا إلى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا إلا على معروف ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم .

حسن الأفعال وقبحها

الأفعال الإنسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا ، وما تنفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضار صورها ، يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا ، أو حضورها فى مخيلاتنا — وذلك بديهى لا يحتاج إلى دليل .

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها ، فإن اختلفت مشارب الرجال فى فهم جمال النساء ، أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال ، فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الأزهار وتنضيد أوراق النباتات والأشجار ، خصوصاً إذا كانت أوضاع الزهر

على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين الألوان بعضها مع بعض ، ولا فى قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام ، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاب ، ومن القبيح اشمئزاز أو جزع ، وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات ، كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم بإحدى تلك الحواس .

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح فى الأشياء ، ولكن لا يخالفنا أحد فى أن من خواص الإنسان بل وبعض الحيوان التمييز بينهما ، وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران فى أطواره إلى الحد الذى نراه عليه الآن ، وإن اختلفت الأذواق فى الأشياء جمال وقبح .

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق . ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح ما يلمّ به العقل من الموجودات المعقولة ، وإن اختلف اعتبار الجمال فيها ، فالكمال فى المعقولات كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة ، وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه ، وتتبهر له بصائر لاحظيه ، وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية ، وإن اختلف أثر الشعور ببعض أطواره فى الوجدان عن أثر الإحساس بالقبيح فى المحسوسات ، وهل فى الناس من ينكر قبح النقص فى العقل ، والسقوط فى الهمة وضعف العزيمة ؟ ويكفى أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى إخفائها ، ويفخرون أحياناً بأنهم متصفون بأضدادها .

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به ،

فالمرّ قبيح مستبشع ، والملك الدميم المشوّه الخلقة ينبو عنه النظر ، لكن أثر المر فى معالجة المرض وعدل الدميم فى رعيته أو إحسانه إليك فى خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته ، فإن جمال الأثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل ، ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو إذا أضرّ ، واشمئزاز النفس من الجميل إذا ظلم وأصر .

هل يمكن لعاقل أن لا يقول فى الأفعال الاختيارية ، كما قال فى الموجودات الكونية ، مع أنها نوع منها وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما بنفسها وإما بأثرها ، وتنفعل نفوسنا بما يلمّ بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات ؟ كلا بل هى قسم من الموجودات حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة .

فمن الأفعال الاختيارية ما هو معجب فى نفسه ، تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألاعيب المعروفة اليوم « بالجمناستيك » وكإيقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها ، ومنها ما هو قبيح فى نفسه ، يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوّه كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع ؛ وكولولة النائحات ونقع المذعورين[1] .

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم ، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم ، فالأوّل كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الإنسان ، والثانى كالأكل على جوع والشرب على عطش وكل ما يحصل

(١) نقعهم ، صياحهم يقال نقع الصوت إذا ارتفع .

لذة أو يدفع ألماً مما لا يحصى عدّه ، وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ ، والقبيح بمعنى المؤلم .

وقلما يختلف تمييز الإنسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود ، اللهم إلا فى قوّة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح .

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع ، وما يقبح بما يجرّ إليه من الضرر ، ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر اللهم إلا من أحط جهاته ، وهو خاصة العقل وسر الحكمة الإلهية فى هبة الفكر .

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته كالإفراط فى تناول الطعام والشراب والانقطاع إلى سماع الأغانى والجرى فى أعقاب الشهوات ، فإن ذلك مفسدة للصحة مضيعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل ، وإنما قبح اللذيذ فى هذا الموضوع * لقصر مدّته وطول مدة ما يجر إليه عادة من الآلام التى قد لا تنتهى إلا بالموت على أسوإ حالاته ، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم .

ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف ومجاهدة الشهوات ، ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حيناً من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه

* فى هذا الموضع .

اضطراب ، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة إن عدّت الحياة مثاراً لها .

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسناء مقارعة الإنسان عدوّه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره ، ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته—حسب ارتقائه فى الإحساس—ومخاطرته ولو * بحياته فى سبيل ذلك ، كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمناً على حياة أخرى تشعر بها نفسه ، وإن لم يحدّدها عقله . ومنه معاناة التعب فى كشف ما عمى عن علمه من حقائق الكون ، كأنه لا يرى المشقة فى ذلك شيئاً بالقياس إلى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ما له من الاستطاعة .

وعُدّ من اللذيذ المستقبح مدّ اليد إلى ما كسبه الغير بسعيه ، واستشفاء ألم الحقد بإتلاف نفس المحقود عليه أو ماله ، لما فى ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المتعدّى ، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها .

كل هذا عرفه العقل البشرى وفرّق فيه بين الضار والنافع ، وسمى الأوّل فعل الشر ، والثانى عمل الخير ، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد حدّدهما النظر الفكرى على تفاوت فى الإجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه فى هذه الحياة ، كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده ، وعزة الأمم وذلّها ، وضعفها وقوّتها ، وإن كان المحدّدون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر .

---

* حتى بحياته .

كل هذا من الأوليات العقلية لم يختلف فيه ملي ولا فيلسوف ، فللأعمال الاختيارية حسن وقبح فى نفسها أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع ، والشاهد على ذلك ما نراه فى بعض أصناف الحيوان وما نشهده فى أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع وما وصل إلينا من تاريخ الإنسان وما عرف عنه فى جاهليته .

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل قال : كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ، ورفع البنيان إلى الحد الموافق ، ووضع السقف على أرفع مما كان وذلك من أنقاض السقف القديم ، وهذا هو التمييز بين الضار والنافع ، فمن زعم أن لا حسن ولا قبح فى الأعمال على الإطلاق فقد سلب نفسه العقل ، بل عدّها أشد حمقاً من النمل .

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل ، فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى إثبات الواجب وصفاته غير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه إلى أن مبدأ العقل فى الإنسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين ، ثم انتقل من هذا مخطئاً أو مصيباً إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء ، ثم قال إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل ، وإنها إنما تسقط فى الشقاء بالجهل

بالله وبارتكاب الرذائل ، وبنى على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ، ومنها ما هو ضارّ لها بعده بإيقاعها فى الشقاء ، فأىّ مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله : إن معرفة الله واجبة وإن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة ، وإن الرذائل وما يكون عنها محظورة ، وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل ما يعتقد ، وإلى أن يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه ؟

أما أن يكون ذلك حالا لعامه الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة ، وأن الفضائل مناط السعادة فى الحياة الأخرى والرذائل مدار الشقاء فيها ، فمما لا يستطيع عاقل أن يقول به ، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به فى رأيه .

لو كانت حاجات الإنسان ومخاوفه محدودة كما هى حاجات فيل أو أسد مثلا ، وكان ما وهب له من الفكر واقفاً عند حدّ ما إليه الحاجة ، لاهتدى إلى المنافع واتقاء المضارّ على وجه لا يختلف فيه أفراده ، ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع .

لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حدّ ولا تختص معيشته بجوّ من الأجواء ، ولا بوضع من الأوضاع ، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سدّ عوزه وتوفير لذاته فى أىّ إقليم وعلى أىّ حال ، وأن يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف

أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافاً لا تنتهى درجاته ، ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة وعرض الأظفار .

* * *

وهب الله الإنسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان : الذاكرة والمخيلة والمفكرة ، فالذاكرة * تثير من صور الماضى ما ستره الاشتغال بالحاضر ، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه إليه الأشباه أو الأضداد الحاضرة فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكره بضدّه كما هو بديهىّ ، والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الأحوال حتى يصير كأنه مشاهد ، ثم ينشئ له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ، ويهمز للنفس فى طلبه أو الهرب منه ، فتلجأ إلى الفكر فى تدبير الوسيلة إليه .

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الإنسان ومنها ينبوع بلائه .

فمن الناس معتدل الذكر هادئ الخيال صحيح الفكر ، ينظر مثلا فى حال مسرف أنفق ماله فى غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته ، فيذكر ألماً لحاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء فى سدّ حاجاته أو فى دفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره بإعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المال آتياً من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره ، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبه الله

* فالمذكرة .

من القوى فى نفسه ، وما سخر له من قوى الكون المحيط به .

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال يرى مالاً مثلا فى يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل ، ولا يزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر ، فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب وإنما يعمد إلى استعماله قوّته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له ، وأخلّ بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده وسنّ سنة الاعتداء ، فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله .

وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما بينا فى المثالين — فلقوّة الذاكرة وضعفها ، وحدّة الخيال واعتداله ، واعوجاج الفكر واستقامته ، أعظم أثر فى التمييز بين النافع والضارّ فى أشخاص الأعمال ، وللأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر بل وفى الذكر .

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضارّ ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم وأهل النظـر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن كان مؤلماً فى الحال ، وأن القبيح ما جر إلى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولن يتصل به ، وإن عظمت لذته الحاضرة ، ولكنهم يختلفون فى النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم

وجميع ما يكشف بهم فلذلك ضربوا إلى الشر فى كل وجه ، وكلٌّ يظن أنه إنما يطلب نافعاً ويتقى ضاراً ، فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة ، اللهم إلا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم ، أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال وقد سبقت الإشارة إليهم فيما مر .

وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعالى ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة ، فهم وإن اتفقوا فى الخضوع لقوّة أسمى من قواهم ، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة . فليس فى سعة العقل الإنسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخـرة،وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصهم * الله بكمال العقل ونور البصيرة وإن لم ينل شرف الاقتداء بهـدى نبـوى ولو بلغه لكان أسرع الناس إلى اتباعه ، وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهى .

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده ، وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما .

ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها كصور بعض العبادات كما يرى فى أعداد الركعات وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الإسلامية ، وكبعض الاحتفالات فى الديانة.

* ممن اختصه الله . الفاعل ضمير يعود إلى كلمة قليل بحسب لفظها .

الموسوية ، وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية ، كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ، ويعلم الله أن فيه سعادته .

* * *

لهذا كله كان العقل الإنسانى محتاجاً فى قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له فى الحياتين ، إلى مُعين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ، ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة ، وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة. ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه ، حتى يكون من بنى جنسه ، ليفهم منه أو عنه ما يقول ، وحتى يكون ممتازاً على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة ، ويكون بذلك مبرهناً على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هى عليه ، ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى أن يعرف منها ، والحياة الآخرة وما أعدّ فيها ، فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معيناً للعقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك ما ضعف عن إدراكه .

وذلك المعين هو النبى

النبوّة تحدّد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك ، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقامات عرفانهم ، لكنها لا تحتم إلا ما فيه الكفاية

للعامة ، فجاءت النبوّات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته ، وبالصفات التى أثبتناها على الوجه الذى بيناه ، وأرشدت إلى طرق الاستدلال على ذلك ، فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص ، وحسن المعرفة وحظر الجهالة ، أو الجحود بشيء مما أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه ، مما لا يعرف إلاّ من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ، ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عماد الطمأنينة ، فإن زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه ، وضدّه يستحق العقوبة التى نص عليها ، كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير أن ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها وإنما جاء الشرع مبيناً للواقع فهو ليس محدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك ، وأذكر مثالاً من كثير قال تعالى على لسان يوسف : (١٢ : ٣٩ أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار) ، يشير بذلك إشارة واضحة إلى أن تفرّق الآلهة يفرّق بين البشر فى وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوّتهم ، وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه ، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، أما اعتقاد جميعهم بإله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام أخوّتهم وهى قاعدة سعادتهم ، وإليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال الزمان[1] ، فكما جاء الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هاديًا لوجه الحسن فيه .

---

(١) كان المؤلف رضى الله عنه يعتقد أن ارتقاء الأمم من طريق علوم الكون والنفس والاجتماع سينتهى بهم إلى التوحيد وسائر ما قرره القرآن من أصول الدين (٤١ : ٥٣ سنريهم =

النبوّة تحدد أنواع الأعمال التى تناط بها سعادة الإنسان فى الدارين . وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها ، وكثيراً ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه ، فوجوب عمل من المأمور به أو الندب إليه ، وحظر عمل أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة ، وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا ، مما لا يستقل العقل بمعرفته بل طريقة معرفته شرعية ، وهو لا ينافى أيضاً أن يكون المأمور به حسناً فى ذاته ، بمعنى أنه مما يؤدى إلى منفعة دنيوية أو أخروية باعتبار أثره فى أحوال المعيشة أو فى صحة البدن أو فى حفظ النفس أو المال أو العرض ، أو فى زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه ، كما هو مفصل فى الأحكام الشرعية ، وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه ، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه ؛ وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ، ولا قبح إلا النهى . والله أعلم .

= آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) . [٥٤] (ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط) .

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الإنسان وموفيه ما لا غنى له عنه ، كما وفَّى غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود .

والكلام فى هذا البحث من وجهين ، الأوّل : وهو أيسرهما على المتكلم وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان ، فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلاً من البشر مبشرين بثوابه ، ومنذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لأحكامه فى فضائل أعمال ، وصفات يطالبهم بها ، وفى نقائص فعال* وخلائق ينهاهم عنها ، وأن يعتقد بوجوب تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم ، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه ، وأن يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليه كتباً تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ، ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها ، وأن هذه الكتب التى أنزلت عليهم حق – وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية ، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو

* وفى مثالب فعال .

المعجزة الدالة على صدق النبي فى دعواه ، فمتى ادّعى الرسول النبوّة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته .

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلوّ فطرتهم ، وصحة عقولهم ، وصدقهم فى أقوالهم ، وأمانتهم فى تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوّه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزهون عما يضادّ شيئاً من هذه الصفات المتقدمة وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهى بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية ، أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده ، يأكلون ويشربون وينامون ويسهَون وينسَون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام — ويمرضون وتمتدّ إليهم أيدى الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتل الأنبياء* .

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فإن مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف .

فإن قيل : إن ذلك لابد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعى ، قلنا : إن واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ولكنا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده ، على أننا بعد الاعتقاد بأن

* وقد يقتلون .

صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة وتابعاً لأى سبب إذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك.

المعجزة لابدّ أن تكون مقرونة بالتحدّى عند دعوى النبوّة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوّة من ظهرت على يده لأن النبي يستند إليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله ، فإصدار الله لها عند ذلك يعدّ تأييداً منه له فى تلك الدعوى ، ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب ، فإن تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله[1] ؛ فمتى ظهرت المعجزة وهى مما لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوى النبوّة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده ، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة .

وأما السحر وأمثاله كإن سلّم أن مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة فى شيء .

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم ، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر ، أو مس عقولهم شيء من الضعف – لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهى الذى يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه والكشف لهم عن أسرار علمه ،

---

(١) يشير المصنف إلى أن دلالة المعجزة وضعية لأنها بمعنى التصديق بالقول وهو المشهور ، وقيل عقلية ، وقيل عادية ، ومن هذه المباحث ما قرره المتكلمون بأدلتهم النظرية ولم يرد فى النصوص السمعية .

ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر فى إنكار دعواهم ، ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ، ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثهم ، والأمر * كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد إليهم تبليغه من العقائد والأحكام .

أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل فى التشريع فجوّزه بعضهم والجمهور على خلافه ، وما ورد من مثل أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل (١) ثم أباحه لظهور أثره فى الإثمار فإنما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعية ، والفضائل محمية ، وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه ، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سبباً لعمارة الأرض ببنى آدم ، كأن النهى والأكل رمزان إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام ، أو مظهران من مظاهر النوع الإنسانى فى الوجود ، والله

---

* فى الأصل من بعثهم .

(١) تأبير النحل تلقيحه والحديث فى صحيح مسلم والروايات صريحة فى تأييد قول المجوزين دون الجمهور ، منها رواية موسى بن طلحة عن أبيه مرفوعاً « إن كان ذلك ينفعهم فليصنعوه فإنى إنما ظننت ظنًّا . فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنى لن أكذب على الله عز وجل » ، ورواية رافع بن خديج « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » ورواية عائشة « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

أعلم [١] ، ومن العسر إقامة الدليل العقلى أو إصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب إليه الجمهور .

حاجة البشر إلى الرسالة

سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الأول ، وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل ، والكلام فى هذا الفصل موجه إن شاء الله إلى بيان الحاجة إليهم ، وهو معترك الأفهام ومزلة الأقدام ، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام ، ولسنا بصدد الإتيان بما قال الأولون ولا عرض ما ذهب إليه الآخرون ، ولكنا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد ، والذهاب إليه من أقرب الطرق ، من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف ، أو استقام عليه الموافق ، اللهم إلا إشارة من طرف خفى ، أو إلماعاً لا يستغنى عنه القول الجلىّ .

وللكلام فى بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان الأول : وقد سبق الإشارة إليه يبتدئ من الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت ، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم ، وأنّ السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء فى حياته

---

(١) قال السيد رشيد رضا : « للمؤلف رحمه الله كلام مفصل فى هذه المسألة قرره فى تفسير قصة آدم من سورة البقرة » يطلب من الجزء الأول من تفسير المنار ، فهو مما لم يحم حوله أحد فيما نعلم .

الفانية ، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والإرادات أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات .

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين ، ملليين وفلاسفة ، إلا قليلاً لا يقام لهم وزن على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء[1] ، وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء ، وفيما تكون عليه النفس فيه ، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه ، فمن قائل بالتناسخ فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ، ومنهم من قال إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذاتها أو ما به شقوتها ، ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ، ألطف من هذه الأجسام المرئية ، وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الأخرويين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفى الوسائل التى تعدّ للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم ، وتضارب آراء الأمم فيه قديماً وحديثاً مما لا تكاد تحصى وجوهه .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يعدّ ضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وإنما هو من الإلهامات التى اختص بها هذا النوع ، فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا — وإن شذ أفراد منه ذهبوا إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد فى عمل ما ، أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ، ولا للفكر

(١) يريد بالفناء المنفى الزوال المطلق وإلا فالفناء على ما فسر به الموت المحتوم .

أن يصل إلى مجهول ، بل قالوا أن لا وجود للعالم إلا فى اختراع الخيال ، وإنهم شاكون ، حتى فى أنهم شاكون ، ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الإلهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء إلى الأجل المحدود ، كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود ، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيًّا باقيًا فى طور آخر وإن لم يدرك كنهه .

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء ، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدّة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شيقة إلى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحدّدها أطراف المراتب والغايات ، معرّضة لآلام من الشهوات ونزعات الأهواء ونزوات الأمراض على الأجساد ومصارعة الأجواء والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ، ولا تنتهى عند حد ، إلهام يلفتها* بعد هذا الشعور إلى أن واهب الوجود للأنواع ، إنما قدّر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ، ولم يعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف ، فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات ، وآلام ولذائذ وكمالات ، لا يصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات .

شعور يهيج بالأرواح إلى تحسس هذا البقاء الأبدى وما عسى أن تكون عليه ، متى وصلت إليه ، وكيف الاهتداء وأين السبيل ، وقد غاب

* إلهام يستلفتها .

المطلوب وأعوز الدليل ؟ شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد ، لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوم ، بل لزمتنا الحاجة إلى التعليم والإرشاد وقضاء الأزمنة والأعصار ، فى تقويم الأنظار وتعديل الأفكار ، وإصلاح الوجدان ، وتثقيف الأذهان ، ولا نزال إلى الآن من همّ هذه الحياة الدنيا فى اضطراب لا ندرى متى نخلص منه ، وفى شوق إلى طمأنينة لا نعلم متى ننتهى إليها .

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادات فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب ؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها إلى الغائب ؟ وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل أحد إلى معرفة ما قدر له فى حياة يشعر بها ، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوّة ما ينفذ إلى تفصيل ما أعدّ له فيها ، والشئون التى لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه ، أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشئون ؟ هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك إلى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمال ، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة إليك ؟ كلا فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر ، ولا اشتراك بينهما إلا فيك أنت ، فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة .

أفليس من حكمة الصانع الحكيم ، الذى أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم ،الذى خلق الإنسان وعلمه البيان ، علمه الكلام للتفاهم ، والكتاب للتراسل ، أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعدّ لها بمحض فضله ، بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث

يجعل رسالته ؟ يميزهم بالفطر السليمة ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه ، فيشرفون على الغيب بإذنه ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين ، نهاية الشاهد ، وبداية الغائب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ثم يتلقون من أمره أن يحدّثوا عن جلاله ، وما خفى على العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدَّر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد لهم من علمه . معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ، ولا يبعد عن متناول أفهامهم ، وأن يبلِّغوا عنه شرائع عامة تحدّد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم ، فى ذلك الكون المغيب من مشاعرهم° بتفصيله ، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى إجماله ، ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الإقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين .

لا ريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأبدع فى كل كائن صنعه وجاد على كل حىّ بما إليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلاً من خلقه ، يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم

° المغيب عن مشاعرهم .

ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ، أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه ، والضلال فى أفضل حاليه .

يقول قائل ولم لم يودع فى الغرائز ما تحتاج إليه من العلم ، ولم يضع فيها الانقياد إلى العمل وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية فى الحياة الأخرى * ؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم ؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث – وهو النوع الإنسانى – ذلك النوع على ما به ، وما دخل فى تقويم جوهره من الروح المفكر ، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه ، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال ، فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان ، إما حيواناً آخر كالنحل ، والنمل ، أو ملكاً من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض .

المسلك الثانى : فى بيان الحاجة إلى الرسالة يؤخذ من طبيعة الإنسان نفسه .

أرتنا الأيام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر وينقطع إلى بعض الغابات أو إلى رؤوس الجبال ، ويستأنس إلى الوحش ، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان ، يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ، ويأوى إلى الكهوف والمغاور ، ويتقى بعض العوادى عليه بالصخور والأشجار ، ويكتفى من الثياب بما يخصف من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر ، ولا يزال كذلك حتى

* فى الحياة الآخرة .

يفارق الدنيا ، ولكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدَّبر [١] وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها ، وإنما الإنسان نوع من تلك الأنواع التى غُرز فى طبعها أن تعيش مجتمعة وإن تعدّدت فيها الجماعات ، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه ، وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه ، وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعورٌ ما بحاجته إلى سائر أفراد الجماعة التى يشملها اسم واحد . وتاريخ وجود الإنسان شاهد بذلك فلا حاجة إلى الإطالة فى بيانه ، وكفاك من الدليل على أن الإنسان لا يعيش إلا فى جملة ما وهبه من قوّة النطق فلم يخلق لسانه مستعدًّا لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة إلى التفاهم* وليس الاضطرار إلى التفاهم بين اثنين أو أكثر إلا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر .

حاجة كل فرد من الجماعة إلى سائرها مما لا يشتبه فيه ، وكلما كثرت مطالب الشخص فى معيشته ازدادت به الحاجة إلى الأيدى العاملة فتشتـد** الحاجة ، وعلى أثرها الصلة من الأهل إلى العشيرة ثم إلى الأمة وإلى النوع بأسره . وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع كما لا يخفى .

هذه الحاجة خصوصاً فى الأمة التى حققت عنوانها لها صلات وعلائق ميزتها عما سواها*** حاجة فى البقاء ، حاجة فى التمتع

---

(١) الدبر بالفتح والكسر جماعة النحل وكذا الزنابير .

* لاشتداد الحاجة به إلى التفاهم .

** فتمتد الحاجة .

*** ميزتها عمن سواها .

بمزايا الحياة ، حاجة فى جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع .

لو جرى أمر الإنسان على أساليب الخليقة فى غيره ، لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده ، عاملٌ يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل . فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارّها ، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة إلى القلوب ، هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر ، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر ، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظاً لنظام الأمم وروحاً لبقائها ، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون ، فإن المحبة حاجة لنفسك إلى من تحب أو ما تحب ، فإن اشتدت كانت ولعاً وعشقاً .

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين إذا كانت الحاجة إلى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ، ولا يكون هذا النوع منها فى الإنسان إلا إذا كان منشؤه أمراً فى روح المحبوب وشمائله التى لا تفارق ذاته ، حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه . فإذا عرض التبادل والتعاوض ولوحظ فى العلاقة بينهما ، تحوّلت المحبة إلى رغبة فى الانتفاع بالعوض ، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع. وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوّة ، أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين .

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الإحساس إليه فى سداد عوزه . فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلها له . فهو يتوقع فقدها بفقده . فيحرص عليه

حرصه على حياته، ولو أنه انتقل من حوزته إلى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضاً لخطر ما ، عادت إليه تلك الصورة يصل بعضها بعضاً واندفع إلى خلاصه بما تمكنه القوّة .

ذلك لأن الإلهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب ، فوجدانه يتردد بين الإحسان ومصدره وليس له وراءهما مذهب ، فحاجته فى سدّ عوزه هى حاجته إلى القائم بأمره ، فيحبه محبته لنفسه ، ولا يبخس منها شوب التعاوض فى الخدمة .

أما الإنسان ، وما أدراك ماهو — فليس أمره على ذلك — ليس ممن يلهم ولا يتعلم ، ولا ممن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعى فى إطلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات ، وتسليمه على صغره ، إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمه ، يصارعه بعوامله وهى غير محصورة ، حتى يعتصر منه منافعه وهى غير محدودة ، وإيداعه من قوى الإدراك والعمل ما يعينه على المغالبة ، ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل إليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم ومخافة ، فلا تنتهى رغائبه إلى غاية ، ولا تقف مخاوفه عند نهاية ، (٧٠ : ١٩ — ٢١ إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً) .

تفاوتت أفراده فى مواهب الفهم ، وفى قوى العمل وفى الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضعفاً أو كسلاً ، المتطاول فى الرغبة شهوة وطمعاً ، يرى فى أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده ، ولا يقنع بمعاوضته

فى ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل ، ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل ، إعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيـل ، ليتمتع وإن لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ، ولا يبالى بإرساله إلى عالم العدم بعد سلبه ، فكلما حثه الذكر والخيال إلى دفع مخافة أو الوصول إلى لذيذ ، فتح له الفكر باباً من الحيلة ، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوّة ، فقام التناهب مقام التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسيرة الإنسان إما الحيلة وإما القهر .

هل وقف الهوى بالإنسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية وتجالد أفراده طمعاً فى وصول كل إلى ما يظنه غاية مطلبه وإن لم تكن له غاية ؟ كلا ! ولكن قدّر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتدّ إليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حدًّا من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات ، وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكاناً كاد لا تصعد إليه سائر اللذات ، وهى من أفضل العوامل ، فى إحراز الفضائل ، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقت لأجله ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التى أشرنا إليها من التفاوت فى مراتب الإدراك والهمة والعزيمة ، حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته فى القلوب بإخافة الآمن وإزعاج الساكن ، وإشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيُّب الحرمة .

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بُنى نظامهم وعلق بقاؤهم

فى الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضًا فى الأعمال ؟ أَوَ لا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها سبباً فى تفانيهم ؟ لا ريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال ، فلابد للنوع الإنسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها .

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة إلى العدل ، وظنُّوا كما ظن بعض العارفين ونطق به فى كلمة جليلة « إن العدل نائب المحبة » ، نعم لا يخلو القول من حكمة ، ولكن من الذى يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها ؟ قيل ذلك هو العقل ، فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء كذلك تكون وسائل السعادة ، وفيها مستقرّ السكينة ، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم ، وقوّة العقل وأصالة الحكم ، تذهب بكثير من الناس إلى ما وراء حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف ، فيعرفون لكل حق حرمته ، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى ، وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة ، وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة ، وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته ، وتسوء عاقبته ، وهو ما يجب اجتنابه ، وإلى ما قد يشق احتماله ، ولكن تسر مَغَبَّته * وهو ما يجب الأخذ به ، ومنهم من أنفق فى الدعوة إلى رأيه نفسه وماله ، وقضى شهيد إخلاصه فى دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل ، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر الناس .

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ، ولكن هل سمع فى سيرَة الإنسان

* ولكن تسر مغباته .

وهل ينطبق على سنته أن يخضع أفراده كافة أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرّد أنه الصواب ؟ وهل كفى فى إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم : إنهم مخطئون وإن الصواب فيما يدعوهم إليه ؟ وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء ، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟ كلا ! لم يعرف ذلك فى تاريخ الإنسان ولا هو مما ينطبق على سنته فقد تقدم لنا أن مهبّ الشقاء هو تفاوت الناس فى الإدراك ، وهم مع ذلك يدّعون المساواة فى العقل* والتقارب فى الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل ، إلا كما يعرف من أمر الجاهل ، ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل ، لم يذق مذاقك من الفضل ، فمجرّد البيان العقلى لا يدفع نزاعاً ولا يردّ طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ويتهدّم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها .

أضف إلى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزغات الأهواء ، شعوراً هو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوماً لها ، كل إنسان مهما علا فكره وقوى عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته — قوة ما آنس من الغلبة عليه مما حوله ، وأنه محكوم بإرادة تصرّفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه ربما لا تعرفها** معرفة العارفين ، ولا تتطرف إليها إرادة المختارين ، تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوّة العظمى ، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ،

---

* المساواة فى العقول .

** = فى وجوه قد .

ولا سبيل لها إلا الطريق التى حدّدت لنوعها وهى طريق النظر ، فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر ، فمنهم من تأوّلها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدّة ضررها ، ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار لاعتبارات له فيها . ومنهم من تبدّت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة تتماثل فى أفراد كل نوع ، وتتخالف بتخالف الأنواع ، فجعل لكل نوع إلهاً .

ولكن كلما رق الوجدان ولطفت الأذهان ، ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة واهتدى إلى أنها قدرة واجب الوجود ، غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه ، فبقى الخلاف ذائعاً ، والرشد ضائعاً .

اتفق الناس فى الإذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم ، لكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الإذعان له اختلافاً كان أشد أثراً فى التقاطع بينهم وإثارة أعاصير الشقاق فيهم ، من اختلافهم فى فهم النافع والضارّ لغلبة الشهوات عليهم .

إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش فى جملة [1] ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلاً من الإلهام الهادى إلى ما يلزم لذلك ، وإنما ترك إلى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته ، ولم يفض عليه مع

(١) ليه قال : يعيش فى جماعة .

هذا الشعور عرفانه *[1] بذات ذلك القاهر ولا صفاته ، وإنما ألقى به فى مطارح النظر ، تحمله الأفكار فى مجاريها وترمى به إلى حيث يدرى ولا يدرى ، وفى كل ذلك الويل على جامعته والخطر على وجوده ، فهل منى** هذا النوع بالنقص ورزئ بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود ؟ نعم هو كذلك لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه .

الإنسان عجيب فى شأنه : يصعد بقوّة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ، ويسامى بقوّته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، ذلك لسرّ عرفه المستبصرون واستشعرته نفوس الناس أجمعين.

من ذلك الضعف قيد إلى هداه ، ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته ، أكمل الواهب الجواد لجملته ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أن ينقص من أفراده[2] وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرّف للحواس لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من

---

* مع ذلك الشعور عرفانه .

** أفهل منى .

(١) لعل الأصل (عرفان) فإن فى إضافة العرفان المنفى إلى المنفى عنه إثباتاً له ، فإن الأصل فى مثل هذه الإضافة الملك وما فى معناه وهذا جمع بين النفى والإثبات كما بينه الإمام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز وهو ظاهر بنفسه لمن تأمله والناس عنه غافلون .

(٢) أى أكمل للمجموع ما لا يصل إليه كسب الأفراد مما يفضل به النوع غيره وهو الوحى الذى هو له كالعقل للأفراد .

الحرّ والبرد ، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء ، وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء ، وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالإجماع – منّ عليه بالنائب الحقيق عن المحبة بل الراجع بها إلى النفوس التى أقفرت منها ، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد ، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهى جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين ، وميزهم من بينها[1] بخصائص فى أنفسهم لايشركهم فيها سواهم ، وأيد ذلك زيادة فى الإقناع بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذى الطامح ، ويذل الجامح ، ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه .

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته . فيحيطون العقول بمالا مندوحة عن الإذعان له ، ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى .

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلموه من شؤون ذاته ، وكمال صفاته – وأولئك هم الأنبياء والمرسلون – فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الإنسان ، ومن أهمّ حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص . نعمة أتمها الله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد .

---

(١) ليته قال : من بينهم .

إمكان الوحى

الكلام فى إمكان الوحى يأتى بعد تعريفه لتصوير المعنى الذى يراد منه ، ولنعرّف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه ، ولا يعنينا ما تثيره الألفاظ فى الأذهان ولنذكر من اللغة ما يناسبه . يقال : وحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحى مصدر من ذلك والمكتوب والرسالة وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه ، ثم غلب فيما يلقى إلى الأنبياء من قبل الله ، وقيل : الوحى إعلام فى خفاء ، ويطلق ويراد به الموحى وقد عرّفوه شرعاً ، أنه إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه ، أما نحن فنعرّفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه [١] أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الإلهام ، بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور .

أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك ، ويجب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم . نعم يوجد فى

---

(١) كصلصلة الجرس أو كلام الملك ، كما ورد فى الحديث الثانى من صحيح البخارى اهـ من حاشية نسخة المؤلف .

كل أمة وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم إلى ما وراء سواحل اليقين ، فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس ، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الإشارة إليه ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسون العقل وشؤونه ، وسره ومكنونه ، ويجدون فى ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهى ، بل عن محابس الحشمة التى تضمهم إلى التزام ما يليق ، وتحجزهم عن مقارفة ما لا يليق ، كما هو حال غير الإنسان من الحيوان ، فإذا عرض عليهم شيء من الكلام فى النبوّات والأديان وهمّ من أنفسهم هامّ بالإصغاء دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، حذر أن يخالط الدليل أذهانهم ، فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذة ما ذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا ، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم إن شاء الله .

قلت : أىّ استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ، ومانح النظر ، متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة ؟

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يُدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط . بل لابد معه من التفاوت فى الفِطَر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه . ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهىّ عند من هو أرقى منه ، ولاتزال

المراتب ترتقى فى ذلك إلى ما لا يحصره العدد ، وإن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها [١] قريباً فيسعى إليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار إليه كأنه من المعروف الذى لا ينازع ، والظاهر الذى لا يجاحد ، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم فى بادئ الأمر على من دعاهم إليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً فى كل أمة إلى اليوم .

فإذا سلم « ولا محيص عن التسليم » بما أسلفنا من المقدمات ، فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها ، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعدّ به من محض الفيض الإلهى لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان مالم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ، ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ، ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ، ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة ، يظهر برحمته من يختصه بعنايته ، ليبنى للاجتماع بما يضطر إليه من مصلحته إلى أن يبلغ النوع الإنسانى أشدّه ، وتكون الأعلام التى نصبها لهدايته إلى سعادته كافية فى إرشاده ، فتختم الرسالة ويغلق باب النبوّة كما سنأتى عليه فى رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أى يرى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريباً عنده .

أما وجود بعض الأرواح العالية * وهم الملائكة المكرمون ، وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية ، فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا ، وأرشدنا إليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وإن غيب عنا ؛ فأىّ مانع مع أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مَشْرِقاً لشىء من العلم الإلهى ، وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه . فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته .

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الأرواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الأنبياء مالا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم ، فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس فيصدق المريض فى قوله أنه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ؛ ولا شىء من ذلك فى الحقيقة بواقع ؛ فإن جاز التمثل فى الصور المعقولة ولا منشأ لها إلا فى النفس وإن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية ، وأن يكون ذلك لها عند ما تنزع عن عالم الحس ، وتتصل بحظائر القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم ؟ وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم ، وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم ، لأن شأنهم فى الناس أيضاً غير الشئون المألوفة ؛ وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم ، والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدّثون عنه أن أمراض

* الأرواح العالية .

القلوب تشفى بدوائهم ، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدّل بالقوّة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم ، ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتلّ ، ويستقيم النظام بمختلّ .

أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكون لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الإنس ، بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدّث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ° ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف ، ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألئ فى بصائرهم ، إلى دعوة من يَحُفُّ بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ومآل من غَرَّروا به ، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل العقول وفساد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

° صلوات الله عليهم .

فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الإقرار بإمكان ما أنبئوا به بل وبوقوعه إلا حجاب من العادة ، وكثيراً ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة .

وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ، ما يغنيه عن البيان ، كما سلف فى الوجه الأوّل من الكلام على الرسالة ، وأما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر ، وهو كما تبين فى علم آخر رواية خبر عن مشهود [١] من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالإخبار بوجود مكة أو بأن للصين عاصمة تسمى (بكين) وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة ، وخلوّه من عوارض تضعف الثقة به ؛ ومرجع كل ذلك إلى العدد ، وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر[٢]

لا نزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الأخبار يحصل اليقين بالمخبر به ، وإنما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ، ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كإبراهيم وموسى وعيسى ، ومما جاء به الخبر أنهم

---

(١) قوله : (مشهود) أى شيء شهده المخبرون وحضروا وقوعه فكان معلوماً بالحس قطعاً ، كإخبار من سمعوا قولا أنهم سمعوه ، ومنه تواتر القرآن وبعض الأخبار .

(٢) راجع فى ذلك كتابنا أضواء على السنة المحمدية .

لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطاناً ولا بالأكثر مالا ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا إليه ، وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الأنظار ، ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه ، واستعلائه عليهم بما كسب من العلم ، قاموا بدعوة إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم ، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم ، وادّعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوّة المعارضة ، ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطر ، وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاءوا به .

حالفتهم القوّة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدّى لا يصح معه فى العقل أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس ، عـلى أن من لا يعتقد ما يقول ، لا يبقى لمقاله أثر فى العقول ، والباطل لا بقاء له إلا فى الغفلة عنه ، كالنبات الخبيث فى الأرض الطيبة ينبت بإهمـالها ، وينمو بإغفالها ، فإذا لامستها عناية يد الزارع * غلبه الخصب وذهب به الزكاء ، ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء ، قامت فى العالم الإنسانى ما شاء الله مما قدّر لها مقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين وقوّة سلطان المغالبين ، فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة ،

---

* عناية الزارع .

وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائماً فى خلال ما ألحق بها المبتدعون .

وأما بقية الرسل ممن يجب علينا الإيمان بهم[١] فيكفى فى إثبات نبوّتهم إثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به ، وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى باب على حدة إن شاء الله .

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم فى حاجة العالم الإنسانى إلى الرسل أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه ، ولكنها حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة أو تقويم ملكاتها أو إيداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين .

وأما تفصيل* طرق المعيشة والحذق فى وُجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعدّ للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال

---

(١) أى بالتفصيل وهم الذين صرح القرآن برسالتهم وذكرهم بأسمائهم وعددهم ٢٣ أو ٢٤ أو ٢٥ خلاف . من الأصل .

* أما تفصيل .

فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريباً فى الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالماً حكيماً منصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات إليه فى أنها مخلوقة له وصنع قدرته ، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال ، وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشرّ فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد فى شريعتها .

يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان[1] على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه[2] ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوّة ، يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده[3] وينهضون نفوسهم إلى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات ، تذكرة لمن ينسى وتزكية مستمرة لمن يخشى ، تقوّى ما ضعف ، منهم ، وتزيد المستيقن يقيناً .

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ، ويؤيدون بما

---

(١) هو أن لا يبحث عن كنه ذاته وصفاته كما تقدم .

(٢) لأنه لا يصل إلى المستحيل الذى يتوقف التسليم به على نبذ العقل الذى هو مشرق الإيمان .

(٣) أى يدعونه ويتقربون إليه بما شرع لهم من الدين ، لا بوسائط من الخلق تقربهم إليه كحجاب الملوك ووزرائهم .

يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة[١] .

يعودون بالناس إلى الألفة ، ويكشفون لهم سر المحبة ويلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها[٢] قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه ، وأن لا يتجاوز فى الطلب حدّه ، وأن يُعين قويهم ضعيفهم ويمدّ غنيهم فقيرهم ، ويهدى راشدهم ضالهم ، ويعلم عالمهم جاهلهم .

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردّوا إليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية إلا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له ، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير إلا بحق مع بيان الحق الذى يبيح تناوله ، واحترام الأعراض مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع ، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوّموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعقود ، والمحافظة على العهود[٣] والرحمة بالضعفاء والإقدام على نصيحة الأقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء[٤] .

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، إلى طلب الرغائب السامية ، آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير ، حسبما أمرهم الله جل شأنه .

---

(١) أى كالزكاة .

ه ويستلفتونهم .

(٢) أى المحبة .

(٣) ومنها المعاهدات الدولية مع الأجانب .

(٤) أى لا فرق بين مسلم وكافر وقوى وضعيف وقريب وبعيد .

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرّضهم لسخطه عليهم ، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعدّ الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده ، وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع فى محظوراته* .

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به [١] مما لو صعب على العقل اكتناهه ، لم يشق عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس ، وتثلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر ، انتظاراً لجزيل الأجر ، أو إرضاء لمن بيده الأمر ، وبهذا ينحلّ أعظم مشكل فى الاجتماع الإنسانى ، لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم[٢] .

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرّسين ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما استكنّ من طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموّها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم ، فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك ،

---

* محاظيره .

(١) كالملائكة والجن وأحوال الآخرة .

(٢) يعنى مشكل العمال ويسهل تلافى ذلك بالدين الإسلامى الذى فرض الزكاة وأمر بالصدقة وهدى الأنفس إلى الرضا بما قسم لها طلباً لسعادة الآخرة مع بذل الجهد فى السعى .

يزيد من سعادة المحصلين* ، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين ، ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرّج فى الكمال . وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعدّ الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء .

وأما ما ورد فى كلام الأنبياء من الإشارة إلى شىء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض فإنما يقصد منه النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه ، ولغتهم عليهم الصلاة والسلام فى مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون ، وإلا ضاعت الحكمة فى إرسالهم ، ولهذا قد يأتى التعبير الذى سبق إلى العامة ، بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة ، وكذلك ما وجه إلى الخاصة يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم(١) .

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان ، بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان ، مطالباً لها باحترام البرهان ، فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد ، والوقوف فى سلامة الاعتقاد

---

* يزيد فى سعادة المحصلين .

(١) أى إذا كان القسم الأول الذى يحتاج إلى التأويل والتفسير قليلا كما دل عليه كلمة (قد) فهذا أقل منه . وأكثر كلامهم يفهمه جميع العارفين بلغتهم على تفاوت عظيم فى الفهم برفع بعضهم درجات فى العلم .

عند الحد ، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب العالمين .

اعتراض مشهور

قال قائل : إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقاً لسعادتهم الدنيوية والأخروية ، فما بالهم لم يزالوا أشقياء عن السعادة بعداء ، يتخالفون ولا يتفقون ، يتقاتلون ولا يتناصرون ، يتناهبون ولا يتناصفون ، كل يستعدّ للوثبة ولا ينتظر إلا مجيء النوبة ، حشو جلودهم الظلم ، وملء قلوبهم الطمع ، عدّ أهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه ، واتخذوا منه سبباً جديداً للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع ، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم فى فهمه ، وتتفارق عقولهم فى عقائدهم ، ويثور بينهم غبار الشر ، وتتشبث أهواؤهم بالفتن ، فيسفكون دماءهم ، ويخربون ديارهم ، إلى أن يغلب قويهم ضعيفهم ، فيستقر الأمر للقوّة لا للحق والدين ، فها هو ذا الدين * الذى تقول إنه جامع الكلمة ، ورسول المحبة ، كان سبباً فى الشقاق ومضرماً للضغينة ! فما هذه الدعوى وما هذا الأثر ؟

نقول فى جوابه : نعم كل ذلك قد كان ، ولكن بعد زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمه ويغلو فيه ، أو لا يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين

* فها هو الدين .

ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبيـاء أنفسهم ، أو الخيرة من تبعتهم ، وإلا فقل لنا : أىّ نبىّ لم يأت أمة بالخير الجمّ ، والفيض الأعم ، ولم يكن دينه وافياً بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها ، فى أفرادها وجملتها ؟

أظن أنك لا تخالفنا فى أن الجمهور الأعظم من الناس — بل الكل إلا قليلاً — لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسطو ، بل لو عرض أقرب المعقولات إلى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ، ولا فى إصلاح العمل — فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها ، ثم انصب نفسك واعظاً بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها ، فأىّ الطرق أقرب إليك فى مهاجمة شهواتها * ، وردّها إلى الاعتدال فى رغائبها ؟

من البديهى أنك لا تجد الطريق الأقرب (١) فى بيان مضار الإسراف فى الرغب ، وفوائد القصد فى الطلب ، وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل إليه أرباب العقول السامية إلا بطويل النظر ، وإنما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتى إليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب ، الغالب عليه فى أدنى شئونه إليه ، المحيط بما فى نفسه ، الآخذ بأزمة همه ، وتسوق إليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب إلى فهمه ، ثم تروى له ما جاء

---

* مهاجمة شهواتهم .

(١) قوله فى بيان إلخ هو المفعول الثانى لقوله لا تجد .

فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ، ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضا الله إذا استقام ، وسخطه عليه إذا تقحم ، عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين ، ويستخذى الغضب ، وتخمد الشهوة ، والسامع لم يفهم من ذلك كله إلا أنه يرضى الله وأولياءه إذا أطاع ، ويسخطهم إذا عصى ، ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم ، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم .

كم سمعنا أن عيوناً بكت وزفرات صعدت ، وقلوباً خشعت لواعظ الدين . ولكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الأدب وزعماء السياسة ؟ متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم ، لما فيه من المنفعة لعامتهم ، أو خاصتهم ، وينفى الشر من بينهم ، لما يجلبه عليهم من مضارّ ومهالك ؟ هذا أمر لم يعهد فى سير البشر ولا ينطبق على فطرهم ، وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد [1] ولا قيام للأمرين إلا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العـامة بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم .

قلنا إن منزلة النبوّات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلَم – المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد إلى ما فوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر . أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ، وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ؟ ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردّى فى هاوية يهلك فيها وعيناه

(١) التقاليد هى العادات الموروثة . قاله المؤلف فى الدرس .

سليمتان تلمعان فى وجهه . يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرّة شىء ، ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر . ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ، ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله — كذلك الرسل عليهم السلام ، أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة ؛ فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة ، ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها فانكبّ فى مهاوى الشقاء . فالدين هاد والنقص يعرض لمن دُعوا إلى الاهتداء به ولا يطعن نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم إليه « ٢ : ٢٦ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » .

ألا إن الدين مستقرّ السكينة ولجأ الطمأنينة ، به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة فى الكون ، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه فى العلم والفضيلة ، وإلى من دونه فى المال والجاه ، اتباعاً لما وردت به الأوامر الإلهية .

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعى الاختيارية . الدين قوّة من أعظم قوى البشر ، وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ما وجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه ، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه ، وما عليهم فى إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ، ويرجعوا به إلى

أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع ، فترجع إليه قوّته ، وتظهر للأعمى حكمته .

ربما يقول قائل : إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأى القائلين بإهمال العقل بالمرّة فى قضايا الدين ، وبأن أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ إلى فهم ما أودعه من معارف وأحكام .

فنقول : لو كان الأمر كما عساه أن يقال لما كان الدين علَماً يهتدى به ، وإنما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى ، كما لا يستقلّ الحيوان فى إدراك * جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لابدّ معها من السمع لإدراك المسموعات مثلا[1] كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ، والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله ، والإذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال .

كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها إلى معرفتها ، وأنها آتية من قبل الله ؟ وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدّق بجميع ما جاء به ، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته ، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو

فى درك .

(١) قال المؤلف فى الدرس : هذه القضية مهملة ، تصدق بالبعض ، فلا يناقضها أن بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل ما يحتاج إلى إدراكه .

من باب المحال المؤدّى إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدّين فى موضوع واحد فى آن واحد ، فإن ذلك مما تتنزه النبوّات عن أن تأتى به ، فإن جاء ما يوهم ظاهره ذلك فى شيء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد ، وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه ، وفى التفويض إلى الله فى علمه ، وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالأوّل ومنهم من أخذ بالثانى .